النشأة والتكوين

ولد معاوية لأبوين عريقين قويين، أخبارهما عندنا قليلة متقطعة، ولكنها من نوع الأخبار التى تدل باللمحة العارضة ويغنى القليل منها عن الكثير فى وصف الطبائع والأخلاق، فتعرف منها أى رجل وأى امرأة كان أبواه من الرجال والنساء.

من أبناء الجاهلية عن النساء أن هند بنت عتبة أم معاوية كانت من نساء الأسر التى تعودت أن تستشير بناتها فى أمر زواجهن، وقد خطبها اثنان فقال لها أبوها: "أما أحدهما ففى ثروة وسعة من العيش، أن تابعته تابعك، وإن ملت عنه حط إليك، تحكمين عليه فى أهله وماله. وأما الآخر فموسع عليه منظور إليه فى الحسب والنسب والرأى الأريب، مدره أرومته وعن عشيرته، شديد الغيرة لا ينام على ضعة ولا يرفع عصاه عن أهله.

"فقالت: يا أبت! الأول سيد مضياع للحرة، فما عست أن تلين بعد إبائها وتضيع تحت جناحه إذا تابعها بعلها فأشرت وخافها أهلها فأمنت؟ ساء عند ذلك حالها وقبح عند ذلك دلالها. فإن جاءت بولد أحمقت، وإن أنجبت فمن خطأ ما أنجبت، فاطو ذكر هذا عنى ولا تسمه على بعد. وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة الحرة العقلية وأنى لأخلاق مثل هذا لموافقة، فزوجنيه".

ونعلم من كلام هند هنا أنها امرأة قوية الأنوثة يرضيها أن تكون زوجة لرجل جدير بالمهابة الطاعة ولا يرضيها أن تكون زوجها لعبة فى يديها مطواعًا لأمرها.

ولم يرد فى أخبار هند خبر غير هذا إلا كان فيه إبانة عن جانب من جوانب هذه الأنوثة القوية، ربما بلغ فى بعض أحوالها مبلغ الوحشية ولكنه على هذا يظل وحشية أنثوية تشاهد من ضراوة الإنسان كما تشاهد من ضراوة الحيوان.

كانت تلقب بآكلة الأكباد لأنها أكلت كبد حمزة عم النبى عليه السلام بعد أن قتل رجالها فى وقعة بدر. وحزن المرأة على رجالها شديد يشتد مع

اشتداد أنوثتها، فإذا كانت فى هذه المثلة وحشية بغيضة فهى وحشية أنثوية، تشتفى بها المرأة إذا جمح بها حزنها وأذهلها عن صوابها، وليست مما يشتفى به أقوياء الرجال.

ولم تنس هند حزنها على رجالها فى حضرة النبى عليه السلام إذ جاءته مع غيرها من النساء يأخذ عليهن عهد البيعة.

قال صلوات الله عليه: تبايعنني على ألا تشركن بالله شيئًا، ولا تسرقن، إلى أن قال: ولا تزنين

قالت: يا رسول الله! هل تزنى الحرة؟

ثم قال: ولا تقتلن أولادكن!

فقالت: أما الأولاد فقد ربيناهم صغارًا وقتلتهم يوم بدر كبارًا، فأنت بهم أعلم!

وإن سؤالها: "هل تزنى الحرة؟ لمن تلك الأخبار التى قلنا أنها تدل باللمحة العارضة ويغنى القليل منها عن الكثير.

إنه سؤال يدل على الأنفة من الزنى لأنها - كرامة جاه، ولأن الزنى خلة من خلال الإماء والسبايا لا تعهد فى الحرائر والكريمات، فالأنفة من الضعة هنا أكبر من الإعراض عن الرذيلة، وقصتها مع زوجها الأول الفاكه بن المغيرة تنبئ عن هذه الأنفة وعن هذه العزة، فكانت إهانتها بتهمة الزنى لا تقبل عندها الغفران ولا تقنعها البراءة منها، وإن شهد بها من تقبل شهادته فى الجاهلية ولا يطلبون على البراءة حجة أقوى عندهم من تلك الشهادة.

"أخرج الخرائطى فى الهواتف عن حميد بن وهب قال: كانت هند بنت عتبة بن ربيعة عند الفاكه بن المغيرة، وكان من فتيان قريش، وكان له بيت للضيافة يغشاه الناس من غير إذن. فخلا البيت ذات يوم، فقام الفاكه وهند فيه، ثم خرج الفاكه لبعض حاجاته وأقبل رجل ممن كان يغشى البيت فولجه،

فلما رأى المرأة ولى هاربًا، فأبصره الفاكه فانتهى إليها فضربها برجله وقال: من هذا الذى كان عندك؟ قالت: ما رأيت أحدًا ولا انتبهت حتى أنبهتنى. فقال لها: إلحقى بأهلك! وتكلم فيها الناس. فخلا بها أبوها فقال لها: يا بنية! إن الناس قد أكثروا فيك فانبئينى بذاك، فإن يكن الرجل صادقًا دسست إليه من يقتله فتنقطع عنا المقالة، وإن يكن كاذبًا حاكمته إلى بعض كهان اليمن، فحلفت له بما كانوا يحلفون به فى الجاهلية أنه كاذب عليها. فقال عتبة للفاكه: إنك قد رميت ابنتى بأمر عظيم فحاكمنى إلى بعض كهان اليمن. فخرج الفاكه فى جماعة من بنى مخزوم، وخرج عتبة فى جماعة من بنى عبد مناف ومعهم هند ونسوة معها تأنس بهن. فلما شارفوا البلاد تنكرت حال هند وتغير وجهها، فقال لها أبوها: يا بنية! إنى قد أرى ما بك من تغير الحال، وما ذاك إلا لمكروه عندك. قالت: لا والله يا أبتاه! وما ذاك لمكروه. ولكنى أعرف أنكم تأتون بشرًا يخطئ ويصيب، فلا آمنه أن يسمنى بسيماء تكون على سبه فى العرب. فقال لها: إنى سوف أختبره لك قبل أن ينظر فى أمرك، فصفر بفرسه حتى أدلى. ثم أدخل فى أحليله حبة من الحنطة، وأوكأ عليها بسير. وصبحوا الكاهن فنحر لهم وأكرمهم، فلما تغدوا قال له عتبة: أنا قد جئناك فى أمر، وقد خبأت لك خبيئًا أختبرك به فانظر ما هو؟ قال: برة فى كمرة. قال: أريد أبين من هذا. قال: حبة من بر فى إحليل مهر، فقال عتبة: صدقت! انظر فى أمر هؤلاء النسوة. فجعل يدنو من إحداهن ويضرب كتفها ويقول: انهضى. حتى دنا من هند فضرب كتفها وقال: انهضى غير رسحاء ولا زانية، ولتلدين ملكًا يقال له معاوية. فنظر إليها الفاكه فأخذ بيدها فنترت يدها من يده وقالت: إليك! والله لأحرصن أن يكون ذلك من غيرك، فتزوجها أبو سفيان فجاءت بمعاوية".

وقصة الكاهن هنا تسقط بحذافيرها ويبقى من خبر هند ممن زوجها إنه اتهمها فأنفت أن تعود إليه بعد أن أراد هو أن يعيدها. لأنها تغضب لكرامتها أن تعيش مع رجل ينزلها دون منزلتها من حرائر النساء.

وينقل عنها فى أسانيد متعددة أنها بشرت بسيادة معاوية على قومه فقالت: ثكلته إن لم يسد إلا قومه!

قال الشافعى فيما رواه الطبرى: "قال أو هريرة: رأيت هندًا بمكة كأن وجهها فلقة قمر وخلقها من عجيزتها مثل الرجل الجالس، ومعها صبى يلعب، فمر رجل فنظر إليه فقال: إنى لأرى غلامًا إن عاش ليسودن قومه. فقالت هند: إن لم يسد إلا قومه فأماته الله .. وقال محمد بن سعد: أنبأنا على بن محمد بن عبد الله بى أبى سيف، قال: نظر أبو سفيان يومًا إلى معاوية وهو غلام فقال لهند: إن ابنى هذا لعظيم الرأس، وإنه لخليق أن يسود قومه. فقالت هند: قومه فقط؟ ثكلته إن لم يسد العرب قاطبة! .. فلما ولى عمر بن يزيد بن أبى شفيان ما ولاه من أمر الشام خرج إليه معاوية فقال أبو سفيان لهند: كيف رأيت؟ صار ابنك تابعًا لابنى!. فقالت: إن اضطربت خيل العرب فستعلم أين يقع ابنك ... "

وربما تناثرت الأخبار فى كتب الأد ب والتاريخ بغير هذه الأحاديث عن هند بنت عتبة زوج أبى سفيان وأم معاوية، ولا حاجة إلى نقلها أو تلخيصها جميعًا لأنها تتفق فى صفة هند بالوسامة والجسامة والاعتداد بالنفس والحسب، وإنما توافق ما نسميه اليوم "بالشخصية" الملحوظة بين ذويها وقومها وليست من عداد الزوجات والأمهات المنسيات فى الغمار كما كان سائر النساء فى بيئتها.

والقصة التى بدأنا بها هذا الفصل تبدى لنا أبا سفيان فى حياته البيتية على صورة لم تذكر فى قصة أخرى، فنعلم أنه سيد بيته كما كان سيد عشيرته "وأنه شديد الغيرة لا يرفع عصاه عن أهله".

وبقية القصة الأخرى تبدى لنا أبا سفيان فى صورة من صور الحياة البيتية، يقول من شاء أنها حياة تقدير ويقول من شاء أنها حياة تقتير.

فقد وصفته هند بأنه رجل "مسيك" وأنا "كانت تصيب من ماله الهنة والهنة ولا تدرى أكان ذلك حلالا لها أم حرامًا".

وكان أبو سفيان شاهدًا فقال: أما ما أصبت منه فيما مضى فأنت منه فى حل.

أما كلام عتبة فى غير ما تقدم من صفات أبى سفيان فهو من المشهور المتردد فى أنباء الجاهلية والإسلام، فقد كان سيدًا "موسعًا عليه منظورًا إليه فى الحسب الحسيب والرأى الأريب، مدره أرومته وعز عشيرته . ." كما قال عتبة فى تخييره لبنته بين الرجلين.

فمعاوية إذن ينتمى إلى أبوين قويين فى عشيرة قوية، ولعله ورث من جانب أمه أكثر مما ورث من جانب أبيه، فهو أشبه بها فى تكوين جسمه، وأشبه بها فى وسامة ملامحه، وأشبه بأصولها المعروفة فى خلق الأناة وبطء الغضب وإيثار المطاولة والمراوغة على المعارك والحروب.

فأبوها عتبة كان قائد قريش فى وقعة بدر، وكان رأيه الذى أصر عليه ولم يثنه عنه غير إجماع مخالفيه أن تنصرف قريش من غير قتال، وأن يتركوا كل رجل منهم ومن المسلمين يرجع إلى عشيرته، وينظروا ما عسى أن يكون من شأنهم جميعًا بعد ذلك.

وقد يرى بعض الناظرين فى الوراثة أن المرأة التى اشتهرت باسم "آكلة الأكباد" لم ترث الأناة وبطء الغضب من أبيها، ولم تورث ابنها هذه الخليقة فيما أورثته من خلائقها.

وأنه لرأى فيه نظر، أو هو جدير بالنظر؛ فإن هذه الضراوة ليست من تلك الأناة.

ولكننا حريون أن نذكر أن "الغيظ" غير الغضب فى دخيلته وفى مدته وأجله.

فقد يشتهر الإنسان بأنه من أهل "الغيظ" ولا يشتهر بأنه من أهل الغضب، وقد يزول الغضب لساعته ويبقى الغيظ سنوات فى طوية صاحبه.

هذا فيما ينطوى عليه الشعوران.

وغير هذا إن لوعة المرأة على رجالها تخالف لوعة الرجل على أقرانه، وإن شفاء الغل بأكل كبد القتيل جماح أنثوى لا يضارعه جماح مثله فى الرجال . . . فلعلها فى طول الأناة كأبيها أو كابنها، ولكنها فى مثل هذه اللوعة لا تشبه هذا ولا ذاك ولا يشبهها هذا ولا ذاك.

ويجوز مع هذا كله أن يكون معاوية وارثًا بعض الخلق من جده لأمه وغير وارث هذا الخلق منها، لأن الوراثة قد تنقطع بين الجنسين فتكون الخليقة الموروثة فى الجدود ولا تكون فى الأمهات.

أما الوراثة التى لا شك فيها فهى وراثة تكوينه الجسدى من أمه، وهى وراثة طالما أشار إليها معاصروه وذكروا فيها اسم أمه، ولم يذكروا اسم أبيه، وقد ترهل من فرط الجسامة فى كهولته ولم يكن لأحد من السفيانيين مثل هذا الترهل فى الكهولة أو الشباب.

وعلاقة هذا التكوين بأخلاقه وأعماله تتضح من سياسته كلها فى أيام الخلافة وأيام الولاية من قبلها، فإذا صدق عليها وصف غالب عليها فوصف السياسة "الجالسة" التى تدبر وتدير وتترك المساعى والزحوف للعاملين المأمورين.

كان معاوية "أبيض جميلا طويلا أجلح . . وقد أصابته لوقة فى آخر عمره فكان يستر وجهه".

وروى الطبرى بإسناده عن ابن عمرو أنه قال: ما رأيت أحدًا أسود من معاوية. وسئل: ولا عمر؟ فقال: كان عمر خيرًا منه وكان معاوية أسود منه.

ونقل عن العوام بن حوشب أنه كان يقول: "ما رأيت أحدًا بعد رسول

الله صلى الله عليه وسلم أسود من معاوية. قيل: ولا أبو بكر؟ فقال: كان أبو بكر وعمر وعثمان خيراً منه وهو أسود".

وهذا السؤدد ليس بالغريب من سمات رجل ورث السيادة من أبويه، وناط بها حقه وحق عشيرته فى الرئاسة، ودارت مساعيهم وظواهرهم وبواطنهم كلها على هذا السؤدد وعلى الغيرة عليه جيلا بعد جيل.

* * *

وقدمنا أن هنداً كانت تعاف الزنى أنفة ولا تعافه ورعًا ونزاهة، ولا تخطئ إذا فهمنا من بعض كلام أبى سفيان أنه كان يتورع عن الكذب بين من يعلم كذبه لأنه يأبى لمرءته أن يصغره أحد لكذبه وإن لم يعلن ذلك بلسانه. وهكذا قال حسن سئل فى بلاد الروم عن النبى عليه السلام. فإنه سمع سائله يحذره من الكذب فأنف أن يكذب على مسمع من شهود سكوت!

ومدار الطموح كله فى نفس معاوية على هذه الخصلة التى جعلت تراث القوم كله رهينًا بمزاياهم الاجتماعية وجعلت هذه المزايا كلها رهينة بنظاهر الرئاسة والسيادة.

ونحن نعرف ما تعلمه فى صغره مما كان يعلمه فى كبره. إذ لم تجر عادة الرواة والوؤرخين فى الجاهلية بالتحدث عن الأ"فال الصغار إلا ما جاء عرضًا فى أثناء الكلام عن آبائهم وكبارهم، ولا استثناء فى ذلك لأبناء الأسر واليوتات ومن ترشحهم أحسابهم لمكان الرئاسة بعد بلوغهم مبلغ الرجال. ولعله لم يكن إهمالا من الرواة والمؤرخين واستصغاراً لأمر أولئك الأطفال، وإنما كان سكوتًا منهم عن أمر معلوم على وجه التعميم يشترك فيه الناشئة من أبناء البيوتات جميعًا ولا ينفرد فيه أحد منهم يتعليم خاص لوظيفة خاصة.

وقد تعلم معاوية القراءة ولاكتابة والحساب، وتتفق الأخبار على كتابته للنبى عليه السلام ولا تتفق على كتابته للوحى ولا على حفظه من القرآن

تلقاها من النبى كما كان كتـاب الوحى يتلقون الآيات لساعتها، والأرجح أنه لم يكن معـروفًا بحفظ شيء من كـتابة الوحى فى أيام جـمع القرآن الكريم، ولو علم عثمـان - وهو من ذوى قرابته - أن عنده مرجـعًا من المراجع يثوب إليه لرجع إليه كما رجع إلى غيره.

وتعليم معاوية فيما عدا ذلك من سـماع أشعار العرب وأمثالهم والإلمام بأخبـار أيامهم كتعـليم غيره من علية قـومه. إلا أنه كان على شـغف خاص بالاستماع إلى سيـر الملوك ووقائع الأمم وأطوار الدول الغابرة، وربما قرئت له هذه السير من كتب يونانـية أو فارسية يقرأها له من يعرف لغـاتها، وقد سمع بعبيد بن شـرية الجرهمي وعلم أنه يعى تواريخ الـتبابعـة والأكاسـرة فأرسل يستقدمـه من صنعاء وأمره بكتابة ما وعاه من تلك التـواريخ، فألف له كتاب الملوك وأخبار الماضين، وهو أول كتـاب وضع فى التاريخ باللغة العربية، ولم يبق منه أثر ولم يطلع عليه أحد يحدث عن فحواه.

وبلاغة معاوية فى كلامه بلاغة سوية لا تعلو ولا تسف عن بلاغة أمثاله ونظرائه: يبين عما يقصد ويحتفل بالقول فينقاد له طيعه الميسر للعربى الفصيح من أبناء عصره، ومن رسائله المحفوظة رسـالة إلى زياد بن أبيه يتوعده فيها، ويدعوه إلى الـطاعة وأخذ البـيعـة ممن يليه، ويقـول منها: "... إنك عـبد كفرت النعمة واستدعـيت النقمة، ولقد كان الشكر أولى بك من الكفر، وأن الشجـرة لتضرب بعرقـها وتتفرع من أصلهـا. لا أم لك. بل لا أب لك. قد هلكت وأهلكت وظننت أنك تخرج من قبضتى ولا ينالك سلطانى. هيهات! ما كل ذى لب يصيب رأيه، ولا كل ذى رأى ينصح فى مـشورته. أمس عبد واليوم أمـير... خطة ما ارتقاها مـثلك يا ابن سمية. وإذا أتاك كـتابى هذا فخـذ الناس بالطاعة والبيـعة وأسرع الإجـابة، فإنك إن تفعل فـدمك حقنت ونفسك تداركت، وإلا اختطفتك بأضـعف ريش ونتلك بأهون سعى. وأقسم قسـمًا مـبرورًا إلا أوتى بك إلا فى زمـارة تمشى حـافيًا من أرض فـارس إلى

الشام، حتى أقيمك فى السوق وأبيعك عبدًا وأردك إلى حيث كنت فيها وخرجت منه والسلام . . " .

ومن ردوده المحفوظة رده على الإمام على حين دعاه إلى البيعة يقول فيه: " . . لعمرى لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت برىء من دم عثمان كنت كأبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين، ولكنك أغريت بعثمان المهاجرين وخذلت عنه الأنصار، فأطاعك الجاهل وقوى بك الضعيف، وقد أبى أهل الشام إلا فتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان، فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين، ولعمرى ما حجتك على كحجتك على طلحة والزبير لأنهما بايعاك ولم أبايعك، وما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل العراق، لأن أهل العراق أطاعوك ولم يطعك أهل الشام. وأما شرفك فى الإسلام وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضعك من قريش فلست أدفعه . . "

وكان يتكلم مرتجلا فيحسن الجواب فى مقامه، ومنه جوابه لعدى بن حاتم حين أتاه يدعوه إلى بيعة على، فسمع منه دعوته على ملأ من صحبه، وأجابه قائلا:

" . . كأنما جئت مهددًا ولم تأت مصلحًا. هيهات يا عدى! كلا والله. إنى لابن حرب ما يقعقع لى بالشنان. وإنك والله لمن المجلبين على ابن عفان رضى الله عنه وإنك لمن قتلته وأرجو أن تكون ممن يقتل الله عز وجل به. هيهات يا عدى بن حاتم. لقد حلبت بالساعد الأشد . . . . "

وكان يحتفل بتحضير الكلام فيقول كما قال فى صفين: "الحمد لله الذى دنا فى علوه وعلا فى دنوه، وظهر وبطن، وارتفع فوق كل ذى منظر، هو الأول والآخر. والظاهر والباطن. يقضى فيفصل ويقدر فيغفر ويفعل ما يشاء إذا أراد أمرًا أمضاه وإذا عزم على شىء قضاه، لا يؤامر أحدًا فيما يملك ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون. والحمد لله رب العالمين على ما أحيينا

وكرهنا. وقد كان فيما قضاه الله أن ساقتنا المقادير إلى هذه البقعة من الأرض ولفت بيننا وبين أهل العراق فنحن من الله بمنظر. وقد قال لالله سبحانه وتعالى: ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد . . انظروا يا أهل الشام! إنكم غداً تلقون أهل العراق فكونوا على إحدى خصال ثلاث: إما أن تكونوا طلبتم ما عند الله فى قتال قوم بغوا عليكم فأقبلوا من بلادكم حتى نزلوا بيضتكم، وأما أن تكونوا قومًا تذبون عن نسائكم وأبنائكم. فعليكم بتقوى الله والصبر الجميل، واسألوا الله لنا ولكم النصر وأن يفتح بيننا وبين قومنا بالحق، وهو خير الفاتحين".

وهذه خطبة ربما أضيفت إليها بعض العبارات المستحدثة بعد عصرها، كالمقابلة بين العلو والدنو وبين القضاء والقدر، ولكنها فيما عدا ذلكل لا تستغرب من زمانها ولا موضعها، وقد خطب معاوية لا شك فى ذلك، وما بقى من خطبه غير مستغرب من زمانه وموضعه فهو فى طبقة هذه الخطبة وعلى نهجها. ومنه آخر كلامه قبل موته حيث قال:

"أيها الناس. إن من زرع قد استحصد. وقد طالت عليكم امرتى حتى مللتكم ومللتمونى، وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقى، وأنه لا يأتيكم بعدى إلا من هو شر منى، كما لم يأتكم قبلى إلا من كان خيراً منى، وأن من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه . . اللهم إنى أحببت لقاءك فأحبب لقائى".

وتحفظ له الكلمات من جوامع الكلم ومن التعبير المونق الجميل، ولكنها غير كثير. فمنها قوله: "إن السلطان يغضب غضب الصبى ويبطش بطش الأسد" وقوله: "لو كانت بينى وبين الناس سشعرة ما انقطعت. أرخيها إذا شدوها وأشدها إذا أرخوها".

ودخل عليه عمرو بن العاص فرآه يرقص إحدى بناته، وكأنه لمح منه تعجبا لفعله فنظر إليه وهو يقول: هذه تفاحة القلب.

فلم يكن من المفحمين ولا من ذوى السجية فى القول، وقد سمع غير مرة يقول ما معناه: إنما شيبنى حذر الخطأ فى الجواب.

وندر بين معاصريه من النابهين من لم تنسب إليه أبيات من الشعر تصح أو لا تصح فى النقل والرواية

وقد نسب إلى الحسن بن على رضى الله عنه إنه عيره أبياتًا كتب بها إلى أبيه يحذره من الإسلام، وهى:

يا صخر لا تسلمن يومًا فتفضحنا
بعد الذين ببدر أصبحوا مزقًا

خالى وعمى وعم الأم ثالثهم
وحنظل الخير قد أهدى لنا الأرقا

لا تركنن إلى أمر تكلفنا
والراقصات به فى أمرنا الخرقا

فالموت أهون من قول العداة لقد
حاد ابن حرب عن العزى إذا فرقا

والحسن أحق أن يتحرى ما يحفظه ومن ينسبه، وما كان معاوية على مبعدة من أبيه فيكتب إليه، ولا كان من دأب معاوية أن ينصح أباه وقد عاش إلى آخر أيامه يشاوره ولا يبرم أمرًا دونه، وهى - بعد - أبيات ليست من نفس الشعر فى صدر الإسلام ولكنها تشبه المقطوعات التى فاضت بها الكتب الموضوعة فى حرب صفين وتكاد تلقى فى روع القارئ أنهم فى ذلك العهد لم يفوهوا بسطر من النثر إلا ومعه سطر منظوم.

ومن قبيل هذه الأبيات أبياته التى قيل أنه بعث بها إلى ابن الزبير مع رسالة يدعوه فيها إلى مبايعة يزيد بولاية العهد، وهى:

رأيت كـرام الناس أن كـف عنهـمـو

بحلـم رأوا فـلا لمن قـد تحـلمـا

ولا سـيـمـا إن كـان عـفـواً بقـدرة

فـذلك أحـرى أن يـجل ويعظمـا

ولست بذى لـؤم فـتـعـذر بالذى

أتاه من الأخـلاق مـا كـان ألاما

ولكن غـشـا لست تعـرف غـيـره

وقـد غش قـبل اليـوم إبليس آدمـا

فـمـا غش إلا نفـسـه فى فـعـاله

فـأصـبح ملعـونًا وقـد كـان مكرمًا

وإنى لأخـشى أن أنـالك بـالذى

أردت فـيخـزى الله من كـان أظلمـا

فليس هذا الشعر من نسق عصره ولا من عادات رجاله فى مقـام كهذا المقام، ولكن الأمر الذى يعهد فيهم مع روايتهم للشعر والمثل أنهم يستشهدون بالأبيات فى موضعهـا ويتأسون بها فى موقعها، وكـذلك قيل أن معاوية ذكر أبيات ابن الأطنابة سـاعة فراره من المعركة لـيلة الهرير فعاوده الثـبات وجعل يترنم بها ويسمعه من حوله يعيد منها:

وقـولى كلمـا جـشـأت وجـاشت

مكانـك تحـمـدى أو تسـتـريحى

وقيل أنه تمثل شعراً وهو يجود بنفسه، فقال:

وتجلدى لـلشـامـتـين أريهـمـو

إنى لريـب الدهر لا أتضـعـضع

ثم قال:

وإذا المنيــة أنـشــبـت أظفــــارها
ألفـــيت كل تميـــمــــة لا تنـفـع

وقيل غير ذلك مما لا داعية للشك فيه إذا كان محصوله كله غير ذلك مما لا داعيـة للشك فيه إذا كان مـحصوله كله أنه كـان يحفظ الأشعار والأمـثال ويستشهد بها فى مواطنها على سنة نظرائه من العرب أجمعين.

ولنا - أن نفهم أنه نشأ فى الجاهلية نشـأة أبناء الأسر وأصحاب الرئاسة الموروثة، وتعلم ما يتعلمونه وتدرب على دربتهم التى ألفوها. إلا أنه كان إلى تربية التجارة والتدبير أدنى منه إلى تربية الفروسية والنضال، فلم يؤثر عنه من فعال الفروسيــة بعد بلوغه مبلغ الرجال لفعل يميـزه بدربه خاصة على فنونها المعهودة فى زمنه كالمسايفة وإصابة الهـدف والسبق على متون الخيل والصمود للأقران فى المبارزة، ولعل تربيته للفـروسية لم تزد على القدر الضرورى الذى يعاب الجهل به ولا يبرز إلى مكان التنويه والتمييز.

وهذا القسط مـن التربية كـاف لسروات الجـاهلية من العاملـين فى مثل عمله وعمل أبيه، وهو تدبير التجارة القرشية وحمل اللواء لحمايتها والاستعانة بمن يصلحون لحراستها ويذبون عنها بالسلاح إذا وجب الذب عنها.

أما بعد الإســلام فهذه التربيــة، أو هذه النشأة، تقترن بـسؤال آخر عن نصيبه من فقة الدين والثقافة الإسلامية، ويكاد يدعو الأمر هنا إلى سؤال غير هذا السؤال فى أمـر الدين من أساسه، فـإن أناسًا من الغـلاة قد شككوا فى إسلامه، بل جـزموا بإسلامه عـيل دخله ومداهنة، فهل كـان لهذا الشك من مسوغ فى عمله أو كلامه بعد إسلامه مع أبيه فى عام الفتح كما هو معلوم؟

لقد تأخر إسلامه كما تأخر إســلام أبيه. فأسلما معًا فى عام الفتح وهو فى نحو الثالثة والعشرين، وليس هذا الـتأخر بموجب للشك فى عقيدته، لأنه

يحدث فى كل دين وفى كل دعوة، وينقسم الناس فى جميع الدعوات الدينية والفكرية إلى مبادرين ومترددين ومتلبثين متلكئين لا يستجيبون لها إلا مع آخر مستجيب، ولا يندر بعد ذلك أن يكون المتأخر أصدق إيمانًا وأثبت عقيدة من المبادر المتقدم، وليس من الجائز أن تتخذ العادة المطردة فى الاستجابة للدعوات حجة على نقيضها. فما كانت الدعوات قط إلا هكذا أو لا تكون.

ومعاوية بعد إسلامه لم تثبت عليه كلمة ولا فعله تنقض تصديقه بدينه ورعايته لفروضه وشعائره: كان يصلى ويصوم ويزكى ويحج ويقرأ القرآن ويستمع إليه، وكانت كل لفظة فاه بها وأحصبت عليه فى مرض الوفاة تدل على الإيمان بلقاء الله وعلى الإيمان بالجزاء فى العالم الآخر، ومما تواتر من أحاديث الملازمين له فى ساعاته الأخيرة أنه كان يحتفظ بقلامة من ظفر رسول الله وشعرات من لحيته الشريفة أخذها من وضوئه وما زال محتفظًا بها حتى أوصى بأن تدفن فى كفنه، وكل أولئك قد يسرى إليه الظن ممن تغالبه الظنون. إلا المعيشة بين الأهل والبنين حيث ينطلق المرء على سجيته وتبدر الفلتات على الرغم من طول الحذر والمراوغة ممن لهم باطن غير ظاهرهم فى العقيدة الدينية، ولا نتصور أن رجلا له باطن وظاهر فى أمر العقيدة ينشأ من بيته مؤمنان تقيان كخالد ومعاوية الثانى حفيديه. فإن إخفاء البواطن عشرات السنين حيث يعيش المرء على رسلته أمر يفوق طاقة الإنسان.

قلنا فى عقيدة صاحبه عمرو بن العاص أنه "مسلم لاشك فى إسلامه ولا شك فى طبعه ولا شك فى اختلاف الطبائع بين المعتقدين جميعًا فى كل دين من الأديان ورأى من الآراء، فلما فتحت له الحيطة باب التفكير فى الإسلام أقبل عليه وود لو يغنمه بريئًا من عقابيل الجاهلية، لأنه نفض يديه منها وأيقن بضلالها.

"قال وقد اعتزم لقاء النبى عليه السلام ما فحواه: فلقيت خالدًا فقلت: ما رأيك! قد استقام المنسم والرجل نبى. فقال خالد: وأنا أريده. قلت: وأنا

معك . . وكنت أسن منهما فقدمتهما لأستدبر أمرهما. فبايعا على أن يغفر لهما ما تقدم من ذنوبهما، فأضمرت أن أبايعه على أن يغفر لى ما تقدم وما تأخر. فلما بسط يده قبضت يدى، فقال عليه السلام: ما لك يا عمرو! قلت أبايعك يا رسول الله علي أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى. قال: إن الإسلام والهجرة يجبان من كان قبلهما. فبايعته، والله ما ملأت عينى منه وال راجعته بما أريد حتى لحق ربه حياء منى".

وقلنا قبل ذلك: "ومن سيرة عمرو بعد إسلامه نعلم أنه كان يتعبد ويتصدق ويستغفر من ذنوب وقع فيها ويقيم الصلاة ويسرد الصوم ويعيش بين ذويه مسلمًا وكلهم مسلمون".

ويقال فى معاوية كل ما يقال فى عمرو مع اختلاف الطبائع وبقاء لوازمه أو ملازماته فى أعمق أعماق الطوية على غير وعى من صاحبها حيث يستوحيها مع العقيدة فى أعماله الظاهرة وسرائره الخفية.

ومن حيل الطبع فى العلاقة بينه وبين ربه أنها لا تخرج عن وحى سليقته فى العلاقة بينه وبين الناس.

كان حريصًا على أن يبرئ ذمته ويلقى تبعته بما وسعه من حيلة وحول، وهكذا كان اجتهاده فى نفى التبعة عنه بين يدى الله.

انظر مثلا إلى حيلة طبعه حيث أراد أن يبرأ إلى الله من مأخذ البيعة بعده لابنه يزيد. قال فى إحدى خطبه "اللهم إن كنت إنما عهدت ليزيد لما رأيت من فضله فبلغه ما أملت وأعنه، وإن كنت إنما حملنى حب الوالد لولده وإنه ليس لما صنعت به أهلا فاقبضه قبل أن يبلغ ذلك".

وكأننا به يسائل نفسه بعد ذلك: "ماذا بقى من التبعة على فى عقابيل هذه البيعة؟ غاية ما أوعى به حق الله فى أمر ولدى الذى أحبه أن أسأل له الموت إن كان غير أهل لولاية العهد بعدى. فإن كان الله قد أبقاه ولم يقبضه

فقد صنعت ما يستطيعه والد يظن بينه وبين نفسه أنه قدم حب ولده على رعاية حق الله".

ومن حيل الطبع فى خطبته الأخيرة بقوله: "إن من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه. اللهم إنى أحببت لقاءك فأحبب لقائى".

حجة مقبولة عند الله. مخلوق يحب أن يلقى خالقه فالله يحب أن يلقاه.

واختلاف طبائع الناس فى الدين على غير وعى منهم لا معنى له إلا أنهم يتدينون على حسب طبائعهم، وليس معناه أنهم يناقضون الدين ولا ينطوون فى بواطنهم عليه.

ومن تحصيل الحاصل أن يقال أن معاوية يعلم من فقه دينه ما لابد أن يعلمه رجل كتب للنبى وحضر مجالسه وحضر عهده كله وعهد خليفته من بعده، ومرت به الأقضية التى فصل فيها ولاة الأمر على مسمع منه، وراجع الفقهاء من الصحابة فيما أشكل عليه بعد ذلك من اشباه تلك الأقضية، فهو على نشأته الجاهلية والإسلامية لم يقصر فى معارف دينه ودنياه عن الطليعة بين نظرائه من السادة الأمويين والقرشيين.

* * *